



اكتشف السوريون الساعون إلى تحرير بلدتهم من الاحتلال الأسدية أخيراً، أنهم بحاجة إلى «غاندي» تلتـف حوله المجاميع السورية بتنوعها وتمايزها واختلافاتها وخلافاتها. أدركوا متأخرين أن النضال من الخارج باتجاه الداخل بحاجة إلى شخصية ذات جوانب «كارزمية» تجذب الجميع باتجاه الهدف الأسـمى. عرفوا بهذا الأمر بعد مرور أشهر سلبية طويلة، لذلك اخترعوا أـحمد معاـز الخطـيب.

جاءوا بالرجل من كواليس الدعوة المعتدلة والصوت الخفيض، وقالوا له: أنت بطلنا، رمنـنا، موحدـنا، أنت صوـتنا العـالي، صحيح أن تاريخ النضالي ليس واضحـاً بشكل كافـاً، صحيحـ أنك لستـ مفكـراً عظـيمـاً يـتناول الناس نـظرـياتـه ورؤـاهـ، صحيحـ أنك لـستـ معـروـفاً بـحـروـبـكـ في الإـصلاحـ الـاجـتمـاعـيـ، لكنـ نوعـيـتكـ هيـ التيـ نـريـدـهاـ بالـضـبـطـ فيـ هـذـهـ المـرـحـلـةـ، إـسـلامـيـ مـعـتـدـلـ يـنـحـازـ الشـعـبـ إـلـيـهـ، وـسـلـيلـ عـائـلـةـ دـمـشـقـيـةـ يـنـتـهـيـ نـسـبـهاـ بـالـحـسـنـ بـنـ عـلـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ، فـتـلـفـ حـولـهـ طـوـافـ الـغالـبـيـةـ السـوـرـيـةـ كـافـةـ، وـقـلـيلـ حـظـ منـ التـارـيخـ السـيـاسـيـ، فـلـاـ خـصـومـ سـيـاسـيـينـ لـهـ، وـرـجـلـ يـلـبـسـ الـبـلـدـةـ إـلـفـرـنجـيـةـ بـلـاـ موـاـفـعـ عـادـيـةـ للـغـربـ.

الوضعـ فيـ سـوـرـيـةـ اـتـخـذـ مـسـارـاًـ مـخـتـلـفاًـ عـنـ الـأـوـضـاعـ فيـ تـونـسـ وـمـصـرـ وـالـيـمـنـ. الثـورـةـ الـخـاطـفـةـ لمـ تـجـدـ نـفـعاًـ فيـ الـبـلـادـ الشـامـيـةـ، لـذـلـكـ كـانـ لاـ بدـ منـ اـخـتـرـاعـ شـخـصـيـةـ غـانـدـيـةـ تـعـمـلـ بـصـبـرـ وـرـوـيـةـ عـلـىـ مـدـىـ زـمـنـ قدـ يـطـوـلـ، وـيـكـوـنـ دـوـرـهـ الرـئـيـسـ جـمـعـ الـأـصـوـاتـ الـمـعـارـضـةـ (الـعـسـكـرـيـةـ وـالـمـدـنـيـةـ)ـ فيـ حـنـجـرـةـ وـاحـدـةـ. عـرـفـ صـنـاعـ قـرـارـ الـمـعـارـضـةـ أـخـيـراًـ أـنـ الـمـقـاتـلـينـ فـيـ الـمـيدـانـ (الـذـينـ يـذـكـرـونـ اللـهـ كـثـيرـاًـ فـيـ فـيـديـوـاتـ "يوـتيـوبـ")ـ، بـحـاجـةـ إـلـيـ شخصـيـةـ جـازـبـةـ تـصـنـعـ مـنـهـمـ جـيـشاًـ مـنـظـماًـ يـتـبعـ مـرـجـعـيـةـ وـاحـدـةـ بـدـلـاًـ مـنـ التـشـكـيلـاتـ الـحـالـيـةـ الـتـيـ تـتـكـونـ مـنـ جـمـاعـاتـ مـتـمـرـدةـ، تـأـتـمـرـ كـلـ مـنـهـاـ بـإـمـرـةـ قـائـدـ مـيـدانـيـ رـبـماـ لـاـ يـعـرـفـ عـنـ عـمـلـيـةـ تـحـرـيرـ سـوـرـيـةـ سـوـىـ أـنـهـ جـهـادـ مـقـدـسـ فـقـطـ! وـأـدـرـكـواـ كـذـلـكـ أـنـ التـظـاهـرـاتـ الـحـاشـدـةـ الـتـيـ لـاـ تـتـشـكـلـ إـلـاـ إـثـرـ كـلـ صـلاـةـ جـمـعـةـ بـحـاجـةـ إـلـيـ رـجـلـ ذـيـ زـبـبـةـ صـلاـةـ! عـرـفـواـ أـنـ عـلـيـهـمـ جـرـ الشـارـعـ السـوـرـيـ الدـاخـلـيـ بـوـاسـطـةـ حـبـ عـاطـفـتـهـ! وـتـرـكـ مـسـأـلـةـ الـاعـتـرـافـ الـخـارـجـيـ لـظـرـوفـ الـضـمـانـاتـ وـالـوـعـودـ الـمـسـنـوـدـةـ أـصـلـاًـ، بـتـعـيـنـ الـمـسـيـحـيـ جـورـجـ صـبـراـ رـئـيـساـ لـلـمـجـلـسـ الـوطـنـيـ السـوـرـيـ. مـسـلـمـ مـعـتـدـلـ لـلـنـاسـ هـنـاـ، وـمـسـيـحـيـ مـعـرـوفـ بـوـطـنـيـتـهـ لـلـنـاسـ هـنـاـ، هـكـذاـ تـسـتـقـيمـ الـأـمـورـ وـتـعـتـدـلـ مـنـ وـجـهـةـ النـظـرـ السـوـرـيـةـ

لا بأس إذاً من هذه الحركة الذكية، لكن على منظري المعارضة أن يضعوا في حسابهم عدداً من الأمور التي تعضد هذا التوجه وتساهم في نجاحه في الغدين القريب والبعيد.

أولاً: ينبغي للمجلس الوطني السوري والائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية، أن يتتفقا على دستور مؤقت للثورة السورية، يكون بمثابة ديباجة للدستور السوري الجديد الذي سيُكتب بعد القضاء على نظام بشار الأسد.

ليس شرطاً أن يتحدث هذا الدستور عن التفاصيل الدقيقة للبناء السوري الحديث، وإنما يمكن الاكتفاء فقط بإعلان المحاور الرئيسية لشكل سورية المقبل ونظام علاقاتها الداخلية والخارجية، هذا الدستور الابتدائي الذي قد يكون على غرار إعلان حقوق الإنسان والمواطن الفرنسي الصادر في 1789، سيؤمن جدار حماية للسوريين كافة بعد القضاء على الأسد، وسيجعل من غاندي الجديد شخصية قابلة للذوبان في المستقبل السوري، بحيث لا يظل طوال الوقت يرمي فردة حذائه الأخرى على الشعب لانتفاع بأختها الصائعة، ولا يسلب الشعب أحذيتهم في المقابل وينتفع بها ويبقىهم حاففين، لكونه فقط «الرجل المتفق عليه»!

عليهم أن يصنعوا دستوراً يؤكد ما قاله الشيخ الخطيب ذات يوم: السياسة وسيلة لا غاية، وعمل الأنبياء هو الهدایة، ونفضل أن يصل الإيمان إلى أصحاب الكراسي، على أن يصل أصحاب الإيمان إلى الكراسي.

ثانياً: على السوريين الذين يريدون أن يعبروا بغاندي الجديد إلى سماوات الحرية، عليهم كذلك أن يحتفظوا به للسنوات التي تلي إسقاط بشار الأسد. المزاج العام في سورية ليس مدنياً وليس ديموقراطياً، ولم يكن كذلك عبر التاريخ، وبالتالي فإننا لا نتوقع أن يتحول المجتمع بكيسة زر بعد سقوط نظام البعث إلى المدنية والديمقراطية.

المجتمع سيمر بمرحلة انتقالية قد تطول وقد تقصير، وهذه المرحلة بحاجة إلى غاندي جاذب لا تقل أهمية دوره عن غاندي التحرير، لذلك فإنه ينبغي للسوريين أن يعوا أن وجود أحمد الخطيب على رأس الحكومة السورية، رئيس لها أو مشرف عليها، في سنوات الانتقال بعد التحرير، سيجنب البلاد صدمة الحرية الجديدة، وما علينا في هذا الجانب سوى تخيل الوضع في ليبيا، لو كان غاندي التحرير الليبي مصطفى عبد الجليل ما زال موجوداً حتى اليوم!

كل البلاد الجديدة على المدنية والديمقراطية بحاجة إلى عرب يشمل برعايته حركة التغيير حتى يكتمل بناء الروح الديمقراطية في نفس كل مواطن كبر دوره في المجتمع أو أقل.

ثالثاً: على غاندي الجديد أن يعرف أن التغيير في هذا الزمن لا يتأتي بقدرات الأفراد الخارقة، هذه الأنواع من التغيير ولی زمانها، التغيير الان لا يمكن أن يكون إن لم تتضامن الجهود في إدارات يتغلب فكرها الجماعي على الأفكار والرؤى المفردة مهما بلغت من العبرية والتفرد، عليه ألا ينجرف كثيراً خلف سحر وجاذبية الجماهيرية التي قد تتشكل له قريباً.

عليه أن يدرك أن الالتفاف المتوقع حوله إنما هو التفاف حول رمز ذي شخصية اعتبارية، ربما يسقط بمجرد أن يتحرك بناءً على حقه في استخدام مصداته الدفاعية الجماهيرية!

سينجح غاندي الجديد، سينجح إن لم تكبر ذاته الداخلية إلى الدرجة التي تحجب عن عقله أنوار الهدف الحقيقي، وسينجح إن لم يستخدمه أبطال النضال كـ«خيال مآتة» فقط كما يقول إخواننا المصريون.

المصادر: